

تعدد مظاهر المقاومة

(في شعر محمد العيد آل خليفة قبل ثورة التحرير 54)

أ.د. بوداود وذناني

جامعة عمار ثليجي بالأغواط - الجزائر

تمهيد :

عندما شرعت في البحث عن النص الشعري المقاوم في الأدب الجزائري الحديث، لفت انتباهي ما قاله الشيخ البشير الإبراهيمي في الشاعر محمد العيد آل خليفة . حين قال (ومن يعرف محمد العيد . ويعرف إيمانه وتقواه، وتدينه وتخلقه بالفضائل الإسلامية، يعرف أن روح الصدق المتفانية في شعره . إنما هي من آثار صدق الإيمان، وصحة التخلق، ويعلم أنه من هذه الناحية بدع في الشعراء .

رافق شعره النهضة الجزائرية في جميع مراحلها، وله في كل ناحية من نواحيها، وفي كل طور من أطوارها، وفي كل أثر من آثارها - القصائد الغر، والتقاطيع الخالدة، فشعره - لو جمع - سجل صادق لهذه النهضة وعرض رائع لأطوارها) ¹ فهذه الشهادة من خبير في الرجال وفنون الشعر واللغة، حفزتي على تتبع المقاومة في شعره، إنصافاً لهذا الشاعر الكبير، وإنزاله المنزلة التي يستحقها بين شعراء عصره . فكان أن تبعت مظاهر المقاومة في شعره، قبل ثورة التحرير 54 في هذا البحث المواضيع .

في مفهوم المقاومة : يتعدد مفهوم المقاومة، نظراً لما تحمله كلمة مقاومة من معاني كالنضال والمواجهة والرفض وغيرها من المعاني . فالمقاومة تعني المجابهة بكل الوسائل لحماية النفس أو استرجاع حق ضائع، أو صيانة عرض أو وطن أو حق من الحقوق . وهي حق إنساني مشروع . وقد حث الدين الإسلامي على مقاومة الظلم والطغيان والتجبر والتسلط . قال تعالى (وأعدوا لهم

ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وءآخريين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم²

فالمقاومة هي حق يمارسه شعب من الشعوب لرفع الظلم عنه، وتغيير الوضع السائد إلى وضع جديد، يسمح له بممارسة حريته كاملة غير منقوصة. فهي ثورة تهدف إلى تحرير الشعب من كل شكل من أشكال الهيمنة والاستعباد والسيطرة ومصادرة الحريات. ومن هنا كانت مقاومة الشعب الجزائري للاستعمار الفرنسي مقاومة مشروعة بواسطتها يتمكن تحرير نفسه من أشكال الهيمنة والاستعباد والقهر.

وإذا كانت المقاومة تعني التغيير والتحرر، فإن الأدب المقاوم هو الأدب الذي يعبر عن ذلك، ويمجد الفعل الثوري ويشيد به، وبكل ما تتجزه تلك المقاومة من تغيير في صالح واقع الإنسان. فالأدب المقاوم هو صوت يصدر عن ذات تنشد الحرية والانعقاد. فسلح الكلمة قد يكون في بعض الأحيان أشد وطأ على العدو من أي سلاح آخر. ومن هنا فلكل مقاومة أديباؤها الذين يعبرون عنها ويشيدون ببطولات رجالها وصمودهم وتحديهم لعدوهم. وعليه فليس هناك مقاومة لعدو بدون أديباء يشيدون بها وينشرون أفكارها. فالشعر يؤدي وظيفة خطيرة في واقع المجتمعات والشعوب. فهو الصوت السحري الذي يحرك النفوس ويثير غضبها على أعدائها. وكما هو معروف فالشعر (يثير فينا دائما أعمق ما فينا، لأنه يخاطب فينا مباشرة حقيقة مأساتنا جميعا وينجح في أن يعرنا من الأعماق، من زيفنا وقلقنا وعارنا، وأن يعيد ارتباطنا العفوي الصادق بأرضنا وخصائصنا وسماتنا الأولى في براءة وطهر)³ فالشاعر وعن طريق الكلمة الحماسية يستطيع أن يحرك النفوس ويدفعها للقيام بالثورة. فالمقاومة تفتح أفق الأديب على الواقع الذي يعيشه وبذلك توفر له مجموعة من الموضوعات الجديدة التي تحفزه على القول والتعبير، وتحرك ما يجول في نفسه.

الشعر والمقاومة :

إذا كان الكثير من المهتمين بالأدب يدركون بأن الشعر يعتبر أداة فعالة من أدوات المقاومة. لأن للنص الشعري المقاوم له خصوصية خاصة، تتميزه بفيض من الإحساسات والمشاعر الصادقة التي تعبر عن روح الثورة ومواجهة العدو وكشف دسائسه ومخططاته الخطيرة. ومن هنا كان (الشعر المقاوم هو وجود أو حياة، ومعايشة يومية للواقع، أو علاقة مع انبثاق

اليكانات وانطفائها . وتأخذ هذه العلاقة شكل نفى، يضم الاحتجاج والملا انصياع، والإدانة، والاستفسار، والاستفزاز، وأهم ما تتسم به أنها مفارقة للإشراف والتعالي على التاريخ، وستكتب الاستمرارية للشعر المقاوم ما دام يمارس الضم واحتواء الواقع في الوجدان⁴

والمطلع على الأدب الجزائري يلاحظ بأن الأدباء الجزائريون قد ارتبطوا بالمقاومة من البداية، منذ أن وطئت أقدام المستعمر أرض الوطن، لأن (الحركة الأدبية ذات صلة وثيقة بالوضع الوطني والاجتماعي . فقد كان الأديب دائما ضمير الأمة . وصدى همومها وآمالها . ولسانها المعبر عن معاناتها وطموحها . يرصد جوانب الخير والشر فيها . فيبارك تلك عموما، ويعرض بهذه يديها غالبا . مبشرا بمثل العمل والمحبة والوفاء، داعيا إلى سعادة الإنسان وصون كرامته، وكرامة وطنه، معلنا عداؤه لكل أشكال الظلم والقهر وكل أساليب المصادرة التي تتعرض لها حرية الأفراد والأوطان)⁵ فالشاعر الجزائري كان أيام المحنة يتحسس بقلبه هموم ومشاكل الأمة، فقام مناخا عليها بشعره، الذي خلد فيه مآثرها . (ف) الشعر الجزائري قد قام برسالته أحسن قيام . دافع عن الكيان الجزائري في عقر بيته، واهتم بالأحداث المؤلمة التي ألت بالعرب ونادى أيضا بموازرة المظلومين حيثما كانوا)⁶

فالأديب الجزائري كان دائما في مقدمة الصفوف مدافعا عن حرمة الوطن، يستنهض أفراد المجتمع لإحداث قوة فاعلة تواجه العدو . وبفضل مواقفه من الاستعمار وكشفه مخططاته الرامية إلى استعباد الشعب الجزائري ومصادرة حريته . مهد الطريق للمقاومات المتلاحقة (فقد عبأ الشعراء كل طاقتهم من أجل الوطن الذي حاولت فرنسا سلب شخصيته، ومسخ هويته، فانبرى الشعراء كغيرهم للدفاع عن الوطن وحراسة قيمه ومثله التي ورثها عن آباءه وأجداده، ووقفوا كالأطواد المشاخنة في وجه تيار التفرنس والاندماج يصارعون المد الاستعماري بجميع وجوهه الظاهرة والمقنعة)⁷ ومن هنا لعب الشعر دورا كبيرا في إثارة الثورات، فهو المحرك للنفوس، الأمر الذي دفع الفرد الجزائري إلى المواجهة والتصدي للعدو، فليس هناك مقاومة أو ثورة بدون شعراء .

وبذلك أحيا الشاعر بشعره في نفوس الجزائريين البطولة وحب الوطن وروح التضحية من أجله . ومع ظهور الفكر الإصلاحي الذي لعب دورا كبيرا في تهيئة الشخصية الجزائرية من خلال ترسيخه للقيم الوطنية الأصيلة، أصبح الشخص الجزائري مهيا للتعبئة السياسية والنضال والمقاومة

وتحمل مخاطر الثورة، والدفاع عنها . فقد (كان الشعر دائما بالمرصاد لكل الوعود الكاذبة والمزاعم التي يطلقها العدو ضد الشعب وكذلك أعوان الاستعمار ومن يسرون في ركابه)⁸ فالنص الشعري المقاوم الذي واكب انتفاضات الشعب الجزائري هو نص حي مكتنز بالحقائق التاريخية المتجددة بتجدد الزمان والأحداث . وبعبارة أوضح نستطيع أن نقول أن النص الشعري المقاوم، هو نص فاعل نص متمرد على الواقع المأساوي الذي يعيش فيه الفرد الجزائري، لذلك فهو نص منفتح على تعدد القراءات والتفاسير، حسب متغيرات الزمن، والرؤية الفكرية لكل متلقي له .

المقاومة في شعر محمد العيد :

إن الذي يطلع على شعر محمد العيد آل خليفة، يجد أن المقاومة في شعره قد شملت موضوعات مختلفة، ولم تكن مركزة في قضية واحدة، لأن اهتماماته كانت موزعة على كل القضايا التي تتعلق بالوطن وبالعقيدة وبالهوية . لذلك يعتبر من أبرز شعراء المقاومة البارزين الذين غلبت على شعرهم مظاهر المقاومة . فهو في كل قصيدة يبدعها يحاول أن ييقظ الهمم من أجل الشعور بالحياة الكريمة، وتجاوز الأخطار التي تحيط بالأمة. فقد عمل على تهيئة النفوس لتغيير الواقع والتخلص من مآسيه وهمومه . (وكان إلى جانب ما عرف به من شدة غيظه على الأوصال القومية وحرصه على مقومات شخصية الأمة، واسع الأفق متحرر الفكر، متطور النظر، بعيدا عن كل تعصب، متفتحا على التجارب الإنسانية، داعيا إلى الإفادة منها، ومن كل منهج يحتم قيم التراث القومي، ولا يمس مقومات الشخصية الإسلامية العربية، ويهدف إلى بناء الحاضر والمستقبل على أسس من أمجاد الماضي التليد)⁹ وقد تناول قضايا الأمة بإحساس صادق وإيمان قوي بقضيتها . فكان لشعره الأثر القوي في تحريك النفوس وتبصير الأمة بخططات العدو، والاستعداد لمقاومته . يقول :

حثوا العزائم وأصدقوا الآمالا إن الزمان يسجل الأعمالا
وشهادة التاريخ أوثق حجة تجلو الأمور وتكشف الأحوال
فتدارسوا التاريخ وأتمسوا به للنشء رمزا عاليا ومثالا
إن الزمان بكم أهاب مؤذنا في فجر نهضتكم ففاق بلالا
يا قوم هبوا لاغتنام حياتكم فالعمر ساعات تمر عجالا¹⁰

فبمثل هذه المواقف الشجاعة قاوم محمد العيد هجمات العدو على الدين الإسلامي، وعلى اللغة العربية. كما قاوم هجماته على تاريخ وشخصية الأمة وهويتها. لأنه من الشعراء الذين يدركون حق الإدراك الرسالة النبيلة للشعر، وأن تلك الرسالة لا يمكن أن تؤدي دورها إلا إذا تمت تأديتها على أتم وجه وبمسؤولية كاملة. فتكون نتائجها ايجابية على أفراد المجتمع. ومن ثمة كانت قصائده كانت قصائد مقاومة.

يقول في إحدى قصائده :

وقفت به أستنهض القوم صادعا بإنذارهم والحر بالحق يصدع
أجاذب حبل الشعر حتى يعينني عليهم وحبل الشعر عاص وطيع
يعاندي طوراً فيرفض دعوتي ويسلس لي طوراً فأدعوه فيسمع¹¹

فالشاعر هنا يلفت الانتباه إلى دور الشعر في تحريك دواخل أفراد المجتمع نحو الهدف المنشود. فكان أن قام بإثارة النفوس وتحريضها على الثورة والتمرد على واقعها المظلم، وهدفه الأول من ذلك بعث هوية الشخصية الجزائرية متمثلة في الإسلام والعروبة. كما أدرك بأن مقاومة العدو لا تأتي ثمارها، إلا إذا كان الشاعر منصهراً في واقع مجتمعه، ومدركاً لمخططات عدوه ومسلحاً بوعي سياسي وفني ثوري. كما كان يدرك جيداً دور الشعر في توعية الجماهير. فقد رافق بشعره مرحلة طويلة من مقاومة الشعب الجزائري للمستعمر الفرنسي وقد عبر عن ذلك (بلغة الود الصادق والرغبة الجادة في التبليغ، لا لغة الزخارف والأصباغ التزييفية واللهو اللفظي والشعوذة الفكرية والأيدولوجية).¹²

وقد تركزت المقاومة في شعر محمد العيد في المواقف التالية :

1 - نصره الدين الإسلامي : عمل الاستعمار الفرنسي منذ أن وطئت أقدام عساكره على محاربة الدين الإسلامي، واستعمل لذلك كل ما يملك من قوة. فكان الشعب الجزائري بالمرصاد لكل مخططاته. وفي خضم هذا الصراع أدرك الشاعر بحسه المرهف بأن الشعر هو سلاح من أسلحة المقاومة، ولا بد من استغلاله لتحريض الشعب على التمرد ومقاومة العدو. فكان محمد العيد في

مقدمة الشعراء الذين تصدوا للمخطط الرهيب للعدو مدافعا عن عقيدة شعبه . وحاثا لأبناء وطنه على التمسك بالدين الإسلامي .

تلاءم في الدين الحنيفي شملنا فبات قريرا شملنا المتلاحم
أبي الله إلا أن يضم قلوبنا إليه وأنف الكفر نخزيان راغم
عطاء لنا من واسع الملك واسع وفضل لنا من دائم الملك دائم
لقد شد بالإيمان عقد قلوبنا وليس لعقد شده الله فاصم
وبوأنا في العالمين مباءة مباركة كالخلد لولا المزاحم
رياض دنت للطامعين قطوفها فلم يمتنع منهم عن القطف طامع
هلم نذد عنها جوائح جمّة تهددها من حولنا وتهاجم
لقد كانت الأجداد أسدا ضراغما بها فهل الأحفاد أسد ضراغم ؟
إلى الحق ولوا أيها القوم وجهكم إلى الحق لا يأخذكم فيه لائم¹³

فالشاعر لم يدخر جهدا في تنبيه أبناء وطنه إلى ما يحاك ضد عقيدتهم الإسلامية . (و) يظهر أنه يفهم اهتمامات الدين الإسلامي كما هي على حقيقتها، فهما شموليا واسعا، يدخل في نطاقها الفرد وحاجاته، والمجتمع وقضياه، والوطن وهمومه، والأمة وتطلعاتها .¹⁴ ولذلك فهو يستنهض طلاب العلم للدفاع عن العقيدة والتمسك بها .

يا معشر الطلاب هل من آخذ بالذكر أو متمسك بعصامه؟
فتشرفوا بالأخذ من آدابه وتعرفوا بحلاله وحرامه
ولكل شيء في الحياة أذية وأذية القرآن من أقوامه
يا معشر الطلاب هل من ناهض بالشعب حر حافظ لذمامه
أو باعث في الشعب روح إباية منكم فموت الشعب في استسلامه¹⁵

ويرد على المتطاولين على الإسلام .

هيات يخزى المسلمون ودينهم علم الخلود يظلل الأقطارا
 قولوا لمن راش النبال لصيده ألق النبال فإن صيدك طارا
 أجدادكم خطوا لكم الخطط العلا ما بالكم لم تقتفوا الآثارا؟
 ما بالكم لم تقلعوا عن وهمكم وتحرروا من قيده الأفكار
 كونوا على المتعززين أعزة كونوا على المتكبرين كبارا
 كونوا الجبال الراسيات مناعة كونوا الحصون الحاميات ذمارا¹⁶

ويؤكد على استنهاض النفوس في نص آخر قائلا :

أراك أخي مازلت و سنان حالما تيقظ إلى كم أنت و سنان حالم؟
 تيقظ ففي دنياك أعظم نهضة تضيق بمعناها اللغى والتراجم
 وجاهد فإن الحر فيها مجاهد وقاوم فإن الحر فيها مقاوم
 و قم فابن ذكرا عالي الصيت ماجدا كريما أواسيه الرجال الأكارم
 ولا تأس إن صادفت في الناس هادما له فسيبني الله ما هو هادم
 سيغنيك حكم الله عن حكم غيره وحسبك أن الله بالحق حاكم¹⁷

فالشاعر في صموده ومقاومته كان مدفوعا بوعيه بحقيقة المستعمر وزيف مخططاته من جهة، ومن جهة ثانية بوعيه بصلافة مجتمعه وتصديه لكل تلك المخططات . فهو يؤمن إيمانا راسخا بأن النصر في الأخير سيكون لأبناء وطنه مهما كانت قوة المستعمر وجبروته وتسلفه، لأنهم يدافعون عن قضية عادلة . فمحمد العيد يستمد تجاربه وصوره من واقعه المر المحكوم بالقهر والظلم الاستعماري . يقول :

فيا أيها الشعب احتمل كل مخنة ولا تك مرتاعا حليف النواح
 وكن شامخا كالطود إن جل حادث بنخسف ديار أو بعصف رياح
 ولا تكن عن صوت الإغاثة معرضا لبذل نوال أو لضمد جراح

وطر في سماء الأقوياء محلقا ولا ترض أن تبقى كسير جناح
نخذ بحبال الرشد إن رمت عصمة فإن حبال الغي غير صحاح
وأقدم على الأخطار في الحق إنني أرى الفوز للمحجم غير متاح
وسر في ركاب المخلصين فإنهم ييؤون في العقبي بكل نجاح¹⁸

ومن هنا نجد أن الشاعر قد استشعر أن الكلمة هي الأداة الفعالة، التي تحرك النفوس وتستنهض الهمم، ولكنها لا تحقق ذلك إلا إذا صبت قالب شعري . ومن خلال هذا التصور جاء النص الشعري المقاوم لمحمد العيد، نصا يتحسس آلام الأمة محاولا جبر كسرهما من خلال شحن نفوس أبنائها بروح الثورة والمقاومة .

وهذا الموقف جاء نتيجة معاشة الشاعر لما يحدث في الواقع، باندماجه فيه . فهو يعيش حياة مجتمعه متأثرا بكل ما كان يواجهه الفرد الجزائري يوميا من معاناة ومصائب وهموم ومظالم ومصادرة للحرية، مؤازرا ومتفاعلا معه . الأمر الذي مكنه من التعبير عن ذلك الواقع بكل صدق .

أخشى على الشعب هلكا يبيده واجتياحا
من ألسن قاذفات تروى القبيح فصاحا
وأنفس خائئات تهوى الخنى والسفاحا
ومن قوانين جور سلت عليها صفاحا
ومن شقاء ملح غدا عليه وراحا¹⁹

من خلال هذا الموقف الواعي بكل أساليب الصراع، يحاول الشاعر استنهاض القوة الكامنة في شعبه لمواجهة مخططات العدو المهادفة إلى تحطيم مقوماته العقدية المتمثلة في العقيدة الإسلامية .

يا شعب قم على الهموم والشؤوم نائرا
يا شعب جد الجد فان هض واكسب المفاخرا²⁰

فاندماج الشاعر في واقع مجتمعه بأحاسيسه وقلبه وعقله، يدل دلالة واضحة على وعيه العميق بما تعانيه الأمة من محن . ويمثل هذه المواقف تتهياً السبل لخلق الفرد المقاوم الذي يخافه العدو ويحسب له ألف حساب .

ومن هنا يظهر لنا الدور الذي كان يقوم به محمد العيد من مجابهة لمخططات العدو الفرنسي من جهة . ومن جهة أخرى بعث قوة المقاومة والحدي والإسرار في النفوس من أجل استرجاع الحقوق المهضومة ولو بالقوة . فقد كان يدرك ما للكلمة من قوة تأثير في النفوس، ولذلك أشهر سلاح شعره في وجه العدو الفرنسي .

فقم يا ابن البلاد اليوم وأنهض بلا مهل فقد طال القعود

وقل يا ابن البلاد لكل لص تجلى الصبح وانتبه الرقود

نفض يا ابن الجزائر في المنايا تظلمك البنود أو اللحد²¹

إن مجازر 8 ماي 45 الأليمة قد غيرت مجرى التاريخ كما غيرت في عقلية الفرد الجزائري . فكان لها الدور الكبير في تغيير رؤية الشاعر من شعر الدعوة والنضال السياسي إلى شعر التحريض على الثورة . لأنه أدرك بأن ساعة الانتقام من العدو الفرنسي قد حانت، وأن هذه الأحداث الدموية والمجازر الرهيبة قد كشفت عن الوجه الإرهابي الدموي للاستعمار الفرنسي . وفي نفس الوقت هيأت الفرصة لتوحيد الشعب الجزائري ضده .

فاندفع محرّضا محرّضا على الثورة . فقد (كانت تلك الأحداث على مداها وجزرها، واعتمداها وتطرفها أكبر هزة للفكرة الوطنية)²² يقول محمد العيد مستنهضا أبناء وطنه :

فظائع ماي كذبت كل مزعم لهم ورمت ما روجوه بإفلاس

ديار من السكان نخلى نكاية وعسفا وأحياء تساق لأرماس

ومعتقلات في العراء مبيدة عليها لصوص في ملابس حراس

فيا لك من خطب تعذر وصفه فلم يجر أقلام به فوق أطراس

ولا خير في عد المظالم وحدها إذا لم نبن عن مرهفات وأتراس²³

فبعد تلك المجازر الرهيبة أيقن الشاعر (أن الشعب دخل في هذه الفترة منعطفاً جديداً في صراعه مع الأعداء بما بدأ يقربه من موعد تفجير ثورته .)²⁴ فيرشد الشاعر أبناء وطنه إلى الطريق الصحيح قائلاً :

سئنا من الشكوى إلى غير راحم وغير محق لا يدين بقسطاس
وما وعدهم إلا سراب بقيعة وما عهدهم إلا مداد بقرطاس
فيا أيها المستعمرون تنزهوا ولا تسمتوا وجه الحياة بأرجاس
ولا تطمعوا أن تستلين قلوبنا فتلك قناة لا تليّن لجساس
ويا أيها الشعب المروع لا تضق بدنياك ذرعا وأطرح خلق الياس
وقل للذي آذاك لا وصل بيننا وموعدا العقبى فما أنا بالناسي²⁵

فهذا الموقف الشجاع كان القصد منه تحريض الجماهير على مقاومة العدو وعدم الخضوع له مهما كان بطشه وتجبره . وأن طريق النصر قد أصبح معبداً بتلك الأرواح التي أزهدت ظلماً وعدواناً . ورغم الجراحات المؤلمة التي أصيب بها المجتمع الجزائري، إلا أنه قد خرج منها أكثر صلابة وأقدر على المقاومة والنضال من أجل تحقيق النصر في المستقبل القريب . فالنص الشعري المقاوم جاء رداً على تلك الأعمال الإجرامية التي قام بها الاستعمار الفرنسي وما تعرض له الشعب الجزائري عبر قرن من الزمن من ويلات ومصائب ومحن لا تعد ولا تحصى . (و) كان الشعر بالمرصاد لكل الوعود الكاذبة والمزاعم التي يطلقها العدو ضد الشعب وكذلك لأعوان الاستعمار ومن يسرون في ركبته)²⁶

فمحمد العيد كان من بين الذين خبروا دسائس الاستعمار الفرنسي، لذا كانت مواقفه واضحة، انعكست في تصديه للعدو، ومواجهته لمخططات الرهيبة، واستنهاضه لأبناء وطنه للقيام بالمقاومة .

الأسر طال بكم فطال عناؤكم فكوا القيود وحطموا الأغلالا
والشعب ضج من المظالم فانشدوا حرية تجميه واستقلالا
لا أمن إلا في ظلال مرفرف حر لنا عال ينير هلالا²⁷

فالشاعر يكشف الأساليب ألا إنسانية للعدو من أجل إخضاع الناس وإذلالهم وسلب حريتهم . وهذا الموقف الصامد الصادق هو مظهر من مظاهر مقاومة الشاعر للعدو فقد كشف زيف مخططاته التي حاول من خلالها تظليل الجماهير وخداعها وإيهامها بأحلام لا تحقق أبدا . فهو يعمل على تسليح أفراد مجتمعه بالكلمة الواعية القادرة على مواجهة العدو والصمود أمام مخططاته وجرائمه الوحشية . (فقد سُم الشعب حياة الذل وضاق بهذه الأغلال . وقد كثرت دسائس الاستعمار ومكره . فلم يبق إلا طريق النضال . فلا يحقق نصره وعزه بالهدوء والاتزان . فهذه الوسيلة تعتبر عند الاستعمار جينا وضعفا .)²⁸ فوقوف الشاعر إلى جانب شعبه كان نتيجة اصطدام الشاعر بالواقع المأساوي الذي كان يعيشه الفرد الجزائري تحت وطأة المستعمر الفرنسي، وما كان يعانيه من مصائب لا تعد . ومن هنا (أصبح لزاما على الشعب أن يعيد النظر في نفسه وأن يقطع الأمل في أي إصلاح لحاله يأتيه من فرنسا، وراح يتلمس بين جنبه نفسا عمامية، تبعته من جديد في دنيا المتناقضات وتخلقه خلقا جديدا في حياة دخيلة كادت تعمي كل المقومات الأساسية للشعب وتطمس معالمها .

فاتجهت العناية إلى بعث الذاتية الصميمة، وإذكاء النخوة والاعتزاز بها، وان أصبحت في مهب العواصف .)²⁹

2 - بعث التاريخ وتقوية الشخصية الوطنية : يعتبر محمد العيد من صنف الرجال الذين يدركون ما لبعث التاريخ من أهمية كبيرة في استنهاض همم الشعوب، وإعادة بناء مجدها . فاستلهم العبر من التاريخ هو الذي يحرك النفوس نحو المقاومة . فحينما يتحسس الشاعر واقع مجتمعه المر، يجد نفسه مجبرا على استنهاض الهمم من خلال العودة إلى التاريخ لبعثه من جديد ليكون مشعلا ينير درب الجماهير نحو الحرية والمستقبل . وقد طبق ذلك الشاعر ميدانيا، حيث ظهرت مظاهر المقاومة في شعره جلية لا لابس فيها، مما أكد دوره الحقيقي في التبشير بثورة التحرير المجيدة التي خلصت الشعب الجزائري من العدو الفرنسي .

فيا شعب لا يحزنك أنك تبثلي وأنك تقصى عن علاك وتقصر

فتأبر على الحق الذي أنت طالب فإنك في تضييعه لست تعذر³⁰

ويقول في قصيدة أخرى :

فردوا مجد ماضيكم وحوطوه بأرصا
وقوا أنفسكم نار عداوات وأحقاد
يزيد الخضم إيقادا لها من بعد إقاد³¹

فالشاعر يحذر قومه من الخلافات التي تمكن العدو من بسط نفوذه على الجميع، فالخلاف مهلكة
ومرض ليس له دواء ولذا كان تحذير الشاعر من ذلك .

نحن للصدر وإن خلفونا فلنا في الأولين رعيلا
لا تخف في جانب المجد موتا فهو موت بالحياة كفيل
من يعيش حرا على الأرض يوما فله في الناس عمر طويل
قد رفعنا راية المجد عليا وبنا للمجد جد الرحيل³²

3 - الدفاع عن اللغة العربية: أدرك الشاعر ما للغة العربية من دور في بناء شخصية الفرد
الجزائري، كما أدرك في نفس الوقت ما كان يخطط له المستعمر الفرنسي من بداية احتلاله للجزائر .
فقد عمل على محاربة اللغة العربية، والعمل على القضاء عليها، بكل الوسائل . ومن هنا كانت
مقاومة الشاعر لثقافة المستعمر، الدخيلة على مقومات الشعب الجزائري . والعمل جا هذا
لاسترجاع الشخصية الوطنية المفقودة .

بني وطني أعلوا المدارس تعلمكم بتعليم جهال وإرشاد ضلال
وصونوا بها الفصحى التي بكتابكم أشادت ببرهان وساعت كسلسال
وهزوا مشاريع الجزائر إنها تنوء بمرأى منكم تحت أثقال
بني وطني لا خير في كل معرض عن الشعب منكم واهن النفس بطل
بني وطني من كان للشعب فاديا فكيلوا له البشرى بأعظم مكيال³³

فالشاعر هنا يستنهض قومه لبناء المدارس الحرة، من أجل تعليم الأجيال وصيانة اللغة العربية لغة
القرآن، والتمسك بها لغة للشعب الجزائري المسلم . وبذلك يمكنهم مواجهة المدارس الفرنسية .
فقد (واجه المواطن الجزائري محاولات التجهيل وطمس اللغة وتراثها، بتمسكه بالحضارة الإسلامية

ومقوماتها الروحية وتشبته باللغة العربية وإن كان يجهلها أو يتعثر لسانه في التعبير بها) ³⁴ كما أدرك الشاعر بحسه الوطني أن تعلم الفرد الجزائري للغة الفرنسي، قد يكرس عبوديته للفرنسيين، وبذلك يفقد الجزائري حريته وشخصية وإنسانيته. وقد لاحظ أحد الباحثين العرب أن (شعراء الجزائر كانوا لا يفصلون بين الدعوة الوطنية المتحمسة لكيان جزائري وبين الدعوة إلى تعميق صلة هذا الوطن بالعروبة والإسلام، كما كانوا لا يفصلون بين مفهوم العروبة ومفهوم الإسلام، فبالفطرة ثم بحكم ثقافتهم العربية الإسلامية التي تلقوها في جامع الزيتونة كانوا يدركون إدراكا عميقا أنهم ينتمون إلى الحضارة العربية الإسلامية) ³⁵ وقد أكد الشاعر في الكثير من قصائده على الانتماء القومي للشعب الجزائري للعروبة والإسلام.

وما نحن إلا من سلالة يعرب عبد مناف جدنا وبنو كعب

فالشاعر يعتبر (العروبة هي السمة الأولى من سمات الكيان الجزائري، وأن استنفار المشاعر والتذكير والتلميح المستمر للعروبة إنما هو ضرب من الإحياء الدائب والتفكير المطرد في مقومات هذا الكيان) ³⁶ يقول :

أفديك بالقول الذي ليس يفترى وأمحظك النصح الذي ليس ينكر

صل العرب العرباء واحم لسانهم فإنك من أصلاهم تتحدر ³⁷

بل أكثر من ذلك أن العروبة هي الدرع الذي يقوي الشعب الجزائري من الذوبان في الكيان الاستعماري.

(وبقدر ما كان الاستعمار عنيفا في الجزائر كانت المقاومة أشد صلابة وإصرارا، ولم تستسلم الجزائر يوما أو تخدع بأساليب فرنسا الثقافية في التغريب والعزل أو التجنيس والإدماج. وفشلت كل المحاولات) ³⁸

4 - مقاومة فكرة الاندماج : لقد روج الاستعمار وأذنا به كثيرا لفكرة الاندماج. وحاول بكل الطرق والوسائل أن يجعل من الجزائر جزءا من فرنسا. إلا أن الشعب الجزائري قاوم ذلك بكل ما يملك من جهد وكان الشاعر محمد العيد في طليعة المقاومين بشعره.

أبت السياسة في الجزا ثر أن نعامل كالبشر

ولعل من نظم السياسة أن نغش وأن نغر
ولعل منها أن يدس لنا ونجلب للحفر
ولعل منها أن ييس لنا لنجلب كالبقر
ولعل منها أن نملأ نملأ كي يساورنا الضجر³⁹

فالشاعر يكشف مناورات فرنسا التي تهدف من وراءها إلى مسخ شخصية الفرد الجزائري بعد أن تجرده من هويته العربية الإسلامية. كما كان واعيا بالتغيير، الذي سيحدث في المستقبل، والذي يحمل في باطنه التخلّص من العدو الفرنسي. ولذلك قرر أن يدفع بعجلة التغيير إلى الأمام من خلال الكلمة المقاومة المعبرة عن ما يجول في خاطر الفرد الجزائري. من أجل خلق وعي نضالي، يؤمن بحقيقة التغيير الجذري للوضع القائم. ولكن الوعي النضالي لا يتحقق إلا إذا فجره نص شعري راسخ الجذور في المقاومة.

ف) في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الجزائر أخذ الشعر على عاتقه الدعوة إلى الوحدة الشعبية والوطنية النقية، وإلى التحرر من الماضي البغيض وذسيان الذات في سبيل المثل العليا).⁴⁰ والعمل بكل قوة وجهد، لمواجهة كل أنواع التفرقة والتشرذم بين أبناء الوطن. وهنا نجد محمد العيد يحذر الشعب الجزائري من ذلك تحذير العارف بخفايا العدو وأتباعه من الخونة. ويقول موضحاً:

قف حيث شعبك مهما كان موقفه أولاً فإنك عضو منه منحسم
تقول أضحى شئت الرأي منقسماً وأنت عنه شئت الرأي منقسم
فكن مع الشعب في قول وفي عمل إن كنت بالرجل الشعبي تتسم
ولا يرقك شفيف الذات مائعها كالماء فيه وجوه الناس ترتسم
أعدى عدى القوم من يعزى لهم نسبا ويسمع القدح فيهم وهو يبتسم⁴¹

ومن خلال هذا الموقف تتجلى مقاومة محمد العيد للوجود الاستعماري الفرنسي من خلال وعيه بالواقع المزري الذي يعيش فيه الشعب الجزائري، فيقوم بكشف مخططات العدو في نصه

الشعري، من خلال رؤية صائبة، ومعرفة واعية بالقضايا ذات الأولوية بالنسبة للفرد الجزائري في تلك الفترة. فالذي يطلع على شعر محمد العيد سيلاحظ الدور الكبير الذي لعبه شعره في استنهاض الهمم وبعث روح الجهاد في نفوس الجزائريين .

5 - الدفاع عن الإنسانية: يتجلى في شعر محمد العيد المقاوم، مظهر آخر من مظاهر المقاومة وهو الدفاع عن الإنسانية مهما كان جنسها أو معتقدها. الأمر الذي يكشف عن وعي الشاعر بخطورة الاستعمار على الشعوب .

قتل الإنسان لا يرضى إذا أوتي القوة إلا أن يضيم
فهو في الهيجاء مثل الوحش لا راحم طفلا ولا راع حريما
شكت الأرض إلى خالقها من كريم فوقها صار لئيم
أوقد الفتنة في أقطارها وأبى الهدنة فيها أن تقيما⁴²

فمحمد العيد يتألم بآلام كل البشر لأنه ذاق مع شعبه ويلات الاستعمار واكتوى بنار القهر والتسلط والتجبر .

وخلاصة القول: إذا كان النص الشعري المقاوم هو نص ينبثق من رؤية واعية بحركة التاريخ التي يتحرك من خلالها المجتمع، لحظة إدراكه لواقعه المزري وفهمه للأسباب التي تقف وراء ذلك .

فإن نظرة الشاعر محمد العيد لم تكن مرتبطة بالواقع المعيش الذي يتخبط فيه الفرد الجزائري . بل تجاوزته إلى المستقبل، الذي يتحقق فيه النصر على العدو، وتعود الحرية للوطن الجريح . فقد عبر بصدق عن وجدان المجتمع الجزائري المقاوم للاستعمار . وأحيا بشعره قيم الأمة الجزائرية وربطها بوعيا التاريخي . فعمق روح الوطنية في نفسية الفرد الجزائري . وخاض المعركة بشعره، ولم يضعف أو يتهاون حتى تحقق النصر . ومن هنا تتضح الرؤية الخاصة بالشاعر في المقاومة . فهي رؤية تقوم على نظرة فلسفية بعيدة العمق في الواقع الاجتماعي أطرتها الطروحات الفكرية الإصلاحية، فكانت مواقفه من واقعه . من خلال تجربته في الحياة أدرك بأن الفرد لا يمكنه تحقيق النصر على عدوه إلا إذا كان متشبعا بمصادر هويته ومدركا لحقيقة وجوده . وقد تميز شعره بنبرة القوة والتفاؤل بالنصر الذي سيتحقق في المستقبل . بعد أن عمل على تبصيرة الشعب بتاريخ

أجداده المجيد . ونظرا لما يمتاز به الشاعر من حس مرهف ورقة المشاعر وصدق العاطفة فلا بد وأن يستشرف مستقبل أمته . بعد أن تحسس مصائبها وهمومها ومشاكلها، فجاء نصه الشعري ترجمة لذلك بكل صدق .

المراجع :

- 1 - ديوان محمد العيد المؤسسة الوطنية للكتاب ط3 / .
- 2 - عمر بن قينة في الأدب الجزائري الحديث ديوان المطبوعات الجامعية 95
- 3 - عبدالله الركبي الشعر في زمن الحرية (دراسات أدبية ونقدية) ديوان المطبوعات الجماعية 94.
- 4 - صالح خرفي محمد العيد خليفة المؤسسة الوطنية للكتاب 1986 .
- 5 - صالح خرفي الشعر الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب 1984
- 6 - محمد بن سمينة العيديات المجهولة المؤسسة الوطنية للفنون الجميلة 2003
- 7 - محمد بن سمينة محمد العيد آل خليفة دراسة تحليلية لحياته ديوان المطبوعات الجامعية 92 .
- 8 - نور سلمان الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير دار العلم للملايين ط1/1981 بيروت
- 9 - أنور الجندي الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والتجمع مطبعة الرسالة القاهرة 1959
- 10 - كمال عجالي أبو بكر مصطفى بن رحمون حياته وشعره ديوان المطبوعات الجامعية 1991
- 11 - عبد الحميد جيدة الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر مؤسسة نوفل ط1/1980 بيروت
- 12 - محمد الطمار تاريخ الأدب الجزائري الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر
- 13 - محمد صالح الجابري الأدب الجزائري المعاصر دار الجيل ط1/2005 بيروت
- 14 - أبو القاسم سعد الله دراسات في الأدب الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب 1985

15 - مجلة الموقف الأدبي ع118/1981 .

الهوامش:

- 1 - من مقدمة ديوان محمد العيد وأنظر صالح خرفي محمد العيد خليفة ص 131 .
- 2 - سورة الأنفال الآية 60
- 3 - مازن النقيب شعراء الأرض المحتلة وراشد حسين مجلة الموقف الأدبي ع118/1981 ص 92 .
- 4 - عبد الحميد جيدة الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر مؤسسة نوفل ط1/1980 بيروت ص 38
- 5 - عمر بن قينة في الأدب الجزائري الحديث ديوان المطبوعات الجامعية 95 ص 62
- 6 - محمد الطمار تاريخ الأدب الجزائري ص 311 .
- 7 - كمال عجالي أبو بكر مصطفى بن رحمون حياته وشعره ديوان المطبوعات الجامعية 1991 ص 148/149
- 8 - عبدالله الركبي الشعر في زمن الحرية (دراسات أدبية وتقديرية) ديوان المطبوعات الجامعية . 94 . ص 155
- 9 - محمد بن سمينة محمد العيد آل خليفة دراسة تحليلية لحياته ديوان المطبوعات الجامعية 92 ص 39/38 .
- 10 - الديوان ص 339
- 11 - الديوان ص 262
- 12 - عمر بن قينة في الأدب الجزائري الحديث ص 69
- 13 - الديوان ص 136/135
- 14 - محمد بن سمينة العيديات المجهولة المؤسسة الوطنية للفنون الجميلة 2003 ص 16 .
- 15 - الديوان ص 90
- 16 - الديوان ص 113
- 17 - الديوان ص 139
- 18 - محمد بن سمينة العيديات المجهولة المؤسسة الوطنية للفنون الجميلة 2003 ص 77/78
- 19 - الديوان ص 47
- 20 - الديوان ص 61
- 21 - الديوان ص 305/304
- 22 - صالح خرفي الشعر الجزائري الحديث ص 219/218
- 23 - الديوان ص 327/326
- 24 - محمد بن سمينة محمد العيد آل خليفة دراسة تحليلية لحياته ديوان المطبوعات الجامعية 92 ص 98 .
- 25 - الديوان ص 327/326
- 26 - عمر بن قينة في الأدب الجزائري الحديث ص 155 .
- 27 - الديوان ص 339
- 28 - محمد الطمار تاريخ الأدب الجزائري الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ص 289

- 29 - صالح نخري محمد العيد خليفة ص 120 .
- 30 - الديوان ص 160
- 31 - الديوان ص 78
- 32 - الديوان ص 131
- 33 - الديوان ص 127
- 34 - نور سلمان الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير ص 247 .
- 35 - محمد صالح الجابري الأدب الجزائري المعاصر دار الجيل ط1/2005 بيروت ص 47
- 36 - محمد صالح الجابري الأدب الجزائري المعاصر ص 55
- 37 - الديوان ص 159
- 38 - أنور الجندي الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والتجمع مطبعة الرسالة القاهرة 1959 ص 90
- 39 - الديوان ص 307
- 40 - أبو القاسم سعد الله دراسات في الأدب الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب 1985 ص 42
- 41 - الديوان ص 371
- 42 - الديوان ص 338

